مؤسسة صرح الخلافة

تقدم

تفريغ سلسلة:

إمتاع السامعين بقصص أئمة التابعين

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى - 1446 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

إمتاع السامعين بقصص أئمة التابعين

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ

مؤسسة صرح الخلافة

مركز إنتاج الأنصار

الفهرس

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسر إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم تفريغًا لسلسلة (إمتاع السامعين بقصص أئمة التابعين) الصادرة عن إذاعة البيان، وهي من ثلاث حلقات، وتمت مراجعتها نحويًا ولغويًا.

نسأل الله الكريم أن يرحم الأئمة الثلاثة ويلحقنا بهم غير خزايا ولا مفتونين.

إخوانكم في صرح الخلافة

الإعلان

قوم تلقوا العلم والفقه عن السادة الأسلاف، وتربوا على أيدي القادة الكرام الأشراف، تأدبوا بآدابهم الكريمة، وساروا على مناهجهم السليمة القويمة، طابت سيرهم وسرائرهم، وفاحت بالطيبات مكارمهم ومآثرهم، هم أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، فتعالوا معنا لنستمع إلى برنامج: (إمتاع السامعين بقصص أئمة التابعين).

الحلقة الأولى (أبو مسلم الخولاني)

هم الأسلاف العلماء الأتقياء والمخلصون الأوفياء، نفعهم الله بالعلم وزينهم بالتقى والحلم، أمروا بالمعروف والتزموه، ونهوا عن المنكر واجتنبوه، فارقوا أهل الأهواء والبدع والنحل، وأزالوا شبه الزائغين بأوضح البراهين والسبل، فهيا بنا لنستمع إلى قصة علم من أعلام السلف، وهو التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني ومواقفه مع أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان.

بعد أن رحل من اليمن؛ أقام أبو مسلم الخولاني زمنًا في المدينة النبوية، لزم خلاله مسجد رسول الله ﷺ، وصلى ما شاء الله أن يصلي في روضته المطهرة، وأخذ ما وسعه الأخذ عن جلة الصحابة من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وأبي ذر الغفاري وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل وعوف بن مالك الأشجعي، ثم بدا لأبي مسلم أن يرحل إلى بلاد الشام، وأن يتخذها له مقاما، وكانت غايته من ذلك أن يكون قريبًا من الثغور الشامية ليشارك جيوش المسلمين في غزو الروم، ويفوز بأجر المرابطة في سبيل الله، ولما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-، أكثرَ أبو مسلم من التردد عليه وشهود مجالسه.

فكانت له معه مواقف مذكورة مشهورة تشهد للرجلين بسمو المنزلة، وتنبئ عما يتحليان به من جليل الشمائل، من ذلك أن أبا مسلم دخل على معاوية -رضي الله عنه- فرآه يتصدر مجلسًا من مجالسه العامرة، وقد حف به رجال دولته وقادة جيشه ووجوه قومه، ورأى الناسَ يبالغون في إعظامه وإجلاله، فخشي عليه من ذلك أشد الخشية، وبادره قائلًا: "السلام عليك أيها الأجير". فالتفت إليه الناس وقالوا: "الأمير يا أبا مسلم". فلم يأبه لهم وقال: "السلام عليك أيها الأجير". فقال الناس: "الأمير يا أبا مسلم". فلم يعرهم سمعه ولم يرمِ نحوهم بطرفه وقال:

"السلام عليك أيها الأجير". فلما همَّ الناس بمراجعته، التفت إليهم معاوية وقال: "دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول". فمال أبو مسلم إلى معاوية وقال له: "إنما مثلك بعد أن ولاك الله أمر الناس؛ كمثل من استأجر أجيرًا وأوكل إليه أمر غنمه، وجعل له الأجر على أن يحسن رعيها، ويحفظ أبدانها، ويوفر أصوافها وألبانها، فإن هو قام بما عُهد إليه حتى تكبر الصغيرة وتسمن العجفاء وتصح السقيمة أعطاه أجره وزاده، وإن هو لم يحسن رعيها وغفل عنها حتى هلكت عجافها وهزلت سمانها، وضاعت أصوافها وألبانها، منع الأجر عنه وغضب عليه وعاقبه، فاختر لنفسك ما فيه خيرك وأجرك". فرفع معاوية -رضي الله عنه- رأسه -وكان مطرقًا إلى الأرض- وقال: "جزاك الله عنا وعن الرعية خيرًا يا أبا مسلم، فما علمناك إلا ناصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".

وشهد أبو مسلم صلاة الجمعة في جامع دمشق، وكان أمير المؤمنين معاوية يخطب الناس ويذكر لهم ما أمر به من كَرْيِ نهر "بردى" حتى تصفو لهم مشاربه، وكَرَى النهرَ -أي حَفرَ فيه حفرةً جديدة-.

فناداه أبو مسلم من بين الجموع وقال: "تذكر يا معاوية أنك هامة اليوم أو غد -أي تموت اليوم أو غدًا- وأن دارك قبر من القبور، فإن جئتها بشيء كان لك فيها شيء، وإن جئتها صفر اليدين وجدتها قاعًا صفصفًا، وإني أعيذك بالله يا معاوية أن تظن أن الخلافةَ كريُ الأنهار وجمع الأموال، وإنما الخلافة عمل بالحق وقول بالمَعدلة -أي قول بالإنصاف والصدق-، وأخذٌ للناس بما يرضي الله عز وجل، يا معاوية؛ إنا لا نبالي بكدر الأنهار إذا صفت رأس عيننا، وإنك رأس عيننا، فاجتهد في أن تظل صافيًا، يا معاوية؛ إنك إن تَحِف على رجل واحد يذهب حيفك عليه بعدلك، فإياك والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة".

فلما انتهى أبو مسلم من كلامه نزل إليه معاوية عن المنبر وأقبل عليه وقال: "يرحمك الله يا أبا مسلم ويجزيك عنا خير الجزاء".

وفي مرة أخرى؛ صعد معاوية المنبر وشرع في خطبته، وكان قد حبس عن الناس عطاياهم شهرين -أي منع عنهم حقوقهم-، فناداه أبو مسلم وقال: "يا معاوية إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك وأمك، فبأي حق تحبسه عن الناس؟"، فبدا الغضب على وجه معاوية، وجعل الناس يترقبون ما عسى أن يكون منه، وكان معاوية يُعرف بالحلم، فما كان منه إلا أن أشار إلى الناس أن امكثوا في أماكنكم ولا تبرحوها.

ثم نزل عن المنبر وتوضأ، وأراق على نفسه شيئًا من الماء، ثم صعد المنبر فحمد الله عز وجل وأثنى عليه بما هو أهله وقال: "إن أبا مسلم قد ذكر أن هذا المال ليس بمالي ولا مال أبي وأمي، وقد صدق أبو مسلم فيما قال، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الغضب من الشيطان، والشيطان من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل". ثم قال: "أيها الناس، اُغدوا على أعطياتكم على بركة الله عز وجل".

نعم، هذا هو أبو مسلم الخولاني الذي قال عنه الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء): "ومنهم المتخلي عن الهموم والكرب، المتسلي بالأوراد والنوَب: الخولاني أبو مسلم، عبد الله بن ثوب، حكيم الأمة وممثلها، ومديم الخدمة ومحررها".

وأخرج الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن علقمة بن مرثد قال: "انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، منهم أبو مسلم الخولاني".

وكان لا يجالس أحدًا قط، ولا يتكلم في شيء من أمر الدنيا، إلا تحول عنه، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا فَرَجَا أن يكونوا على ذكر خير فجلس إليهم، فإذا بعضهم يقول: قدم غلامي فأصاب كذا وكذا. وقال آخر: جهزت غلامي. فنظر إليهم فقال: "سبحان الله، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كرجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلتُ هذا البيت

حتى يذهب عني هذا المطر. فدخل فإذا البيت لا سقف له! جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير، فإذا أنتم أصحاب الدنيا".

فقال له قائلٌ حين كبر ورَقَّ: لو قصَّرت عن بعض ما تصنع. فقال: "أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة، ألستم تقولون لفارسها دعها وارفق بها، حتى إذا رأيتم الغاية فلا تستبقوا منها شيئًا؟" قالوا: بلى. قال: "فإني أبصرت الغاية، وإن لكل ساع غاية، غاية كل ساع الموت، فسابق ومسبوق".

وعن عطية بن قيس أن أناسًا من أهل دمشق أتوا أبا مسلم الخولاني في منزله، وكان غازيًا بأرض الروم، فوجدوه قد احتفر في فسطاطه حفرة، ووضع في الحفرة قطعًا وأفرغ ماءً فهو يتسلق فيه وهو صائم، فقال له النفر: ما يحملك على الصيام وأنت مسافر وقد رخص الله تعالى لك الفطر في السفر والغزو؟ فقال: "لو حضر قتال لأفطرت وتقويت للقتال، إن الخيل لا تجري الغايات وهي بدنى، إنما تجري وهي ضمرات، إن بين أيدينا أيامًا لها نعمل".

وعن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من أمر أبي مسلم الخولاني أن علق سوطًا في مسجده، ويقول: "أنا أولى بالسوط من الدواب". فإذا دخلته فترة -أي فتور- مشق ساقه سوطًا أو سوطين، وهو الذي قال قولته المشهورة: "لو رأيت الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد".

الله أكبر! إلى أي درجة من العبادة والورع والتقوى وصل إليها هذا الرجل؟! يقول: "لو رأيت الجنة أمام عيني ورأيت النار أمام عيني، ما كان عندي مستزاد"، أي ما زدت شيئًا من العبادة.

وعن أبي مسلم الخولاني أنه كان إذا وقف على خِربة قال: "يا خِربة؛ أين أهلكِ؟ ذهبوا وبقيت أعمالهم، وانقطعت الشهوات وبقيت الخطيئة، ابنَ آدم؛ تركُ الخطيئة أهونُ من طلب التوبة".

هذا، ولقد كان أبو مسلم الخولاني مستجاب الدعوة، فقد أخرج الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن بلال بن كعب قال: كان الظبي يمر بأبي مسلم الخولاني فيقول له الصبيان: "ادعُ الله أن يحبسه علينا لنأخذه بأيدينا". فكان يدعو الله عز وجل فيحبسه حتى يأخذوه بأيديهم.

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّر على باب منزله فتُكبِّر امرأته، فإذا كان في صحن داره كبَّر فتجيبه امرأته، وإذا بلغ باب بيته كبَّر فتجيبه امرأته، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد، فلما كان عند باب بيته كبَّر فلم يجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخذت امرأتُه رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه.

قال: فدخل البيت فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة في البيت منكِّسة تَنكُت بعودٍ معها، فقال لها: "ما لكِ؟" قالت: "أنت لك منزلة من معاوية وليس لنا خادم، فلو سألته فأخدمنا وأعطاك". فقال: "اللهم مَن أفسد عليَّ امرأتي فأعمِ بصرَها".

قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها: "زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلتِ له يسأل معاوية يُخدمه ويعطيه". قال: فبينما تلك المرأةُ جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها فقالت: "ما لسراجكم طُفِئ؟" قالوا: "لا". فعرفت ذنبها، فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها. قال: "فرحمها أبو مسلم، فدعا اللهَ لها فرد عليها بصرها".

الحلقة الثانية (إياس بن معاوية المزني)

هم الأسلاف العلماء الأتقياء والمخلصون الأوفياء، نفعهم الله بالعلم وزينهم بالتقى والحلم، أمروا بالمعروف والتزموه، ونهوا عن المنكر واجتنبوه، فارقوا أهل الأهواء والبدع والنحل، وأزالوا شبه الزائغين بأوضح البراهين والسبل، فهيا بنا لنستمع إلى قصة علم من أعلام السلف، وهو التابعي الجليل إياس بن معاوية المزني.

بات أمير المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز ليلته تلك أرقًا مسهدًا، لم يغتمض له جفن ولم يطمئن له جنب، فلقد كان يشغله في تلك الليلة الباردة من ليالي دمشق أمر اختيار قاضٍ للبصرة يُقيم بين الناس موازين العدل، ويحكم فيهم بما أنزل الله، ولا تأخذه في الحق رهبة ولا رغبة.

ولقد وقع اختياره على رجلين اثنين كانا كفرسي رهان فقهًا في الدين، وصلابةً في الحق، ووضاءةً في الفكر، وثقوبًا في النظر، وكان كلما وجد في أحدهما مزية ترجحه على صاحبه ألفى في الآخر ما يقابل هذه المزية، فلما أصبح دعا واليه على العراق عدي بن أرطأة -وكان يومئذ عنده في دمشق- وقال له: "يا عدي، اجمع بين إياس بن معاوية المزني والقاسم بن ربيعة الحارثي، وكلمهما في أمر قضاء البصرة، ووَلِّ أحدهما عليه". فقال: "سمعًا وطاعةً يا أمير المؤمنين".

جمع عدي بن أرطأة بين إياس والقاسم وقال: "إن أمير المؤمنين أمرني أن أولي أحدكما قضاء البصرة، فماذا تريان؟" فقال كل منهما عن صاحبه إنه أولى منه بهذا المنصب، وذكر من فضله وعلمه وفقهه ما شاء الله أن يذكر. فقال عدي: "لن تخرجا من مجلسي هذا حتى تحسما هذا الأمر". فقال له إياس: "أيها الأمير، سل عني وعن القاسم فقيهَي العراق؛ الحسن البصري ومحمد بن سيرين، فهما أقدر

الناس على التمييز بيننا". وكان القاسم يزورهما ويزورانه، وإياس لا تربطه بهما رابطة، فعلم القاسم أن إياسًا أراد أن يورطه، وأن الأمير إذا استشارهما أشارا به دون صاحبه.

فما كان منه إلا أن التفت إلى الأمير وقال: "لا تسأل أحدًا عني ولا عنه أيها الأمير، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياسًا أفقه مني في دين الله وأعلم بالقضاء، فإن كنت كاذبًا في قسمي هذا فما يحل لك أن توليني القضاء وأنا أقترف الكذب، وإن كنت صادقًا فلا يجوز لك أن تعدل عن الفاضل إلى المفضول". فالتفت إياس إلى الأمير وقال: "أيها الأمير؛ إنك جئت برجل ودعوته إلى القضاء، فأوقفته على شفير جهنم، فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبة لا يلبث أن يستغفر الله منها وينجو بنفسه مما يخاف". فقال له عدي: "إن من يفهم مثل فهمك هذا لجديرٌ بالقضاء حريٌّ به". ثم ولَّاه قضاء البصرة.

فمَن هذا الذي اختاره الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز قاضيًا له على البصرة، مَن ذلك الذي ضربت بذكائه وفطنته وبديهته الأمثال كما ضربت الأمثال بجودِ حاتم الطائي، وحُلمِ الأحنف بن قيس، وإقدامِ عمر بن معدِ كَرب؟، حتى قال أبو تمَّام في مدح أحمد بن المعتصم:

إقدام عمر في سماحة حاتم*** في الحلم أحنفَ في ذكاء إياس

تعال لنبدأ قصة حياة الرجل من أولها، فللرجل سيرة مثيرة فذة من روائع السير.

ولد التابعي إياس بن معاوية بن قرة المزني سنة ست وأربعين للهجرة في منطقة اليمامة في نجد، وانتقل مع أسرته إلى البصرة، وفيها نشأ وتعلم، وتردد على دمشق في يفاعته، وأخذ عمن أدركه من بقايا الصحابة الكرام وجلة التابعين، ولقد

ظهرت على الغلام المزني علامات النجابة وأمارات الذكاء منذ نعومة أظفاره، وجعل الناس يتناقلون أخباره ونوادره وهو ما زال صبيًّا صغيرًا.

روي عنه أنه كان يتعلم الحساب في كُتَّاب لرجل يهودي من أهل الذمة -والكُتَّاب مكانُ التعليم وجَمْعُه كَتاتيب- فاجتمع عند المعلم أصحابه من اليهود، وجعلوا يتكلمون في أمور الدين، وهو ينصت إليهم من حيث لا يدرون، فقال المعلم لأصحابه: ألا تعجبون للمسلمين؟! فهم يزعمون أنهم يأكلون في الجنة ولا يتغوَّطون -أي لا يقضون الحاجة ولا يتبرَّزون-. فالتفت إليه إياس وقال: أتأذن لي يا معلم في الكلام فيما تخوضون فيه؟ فقال المعلم: نعم. فقال الفتى: أَكُلُّ ما يُؤكل في الدنيا يخرج غائطًا؟ فقال المعلم: لا. فقال الفتى: فأين يذهب الذي لا يخرج؟ فقال المعلم: يذهب في غذاء الجسم. فقال الفتى: فما وجه الاستنكار منكم إذا كان يذهب بعض ما نأكله في الدنيا غذاءً أن يذهب كله في الجنة في الغذاء؟ فألوى المعلم اليهودي يده وقال له: "قاتلك اللهُ مِن فتى!".

ويتقدم الغلام في السن سنة فسنة، وتتقدم معه أخبار ذكائه أينما حل، فقد روي أنه دخل دمشق وهو ما يزال غلامًا، فاختلف مع شيخ من أهل دمشق في حق من الحقوق، ولما يئس من إقناعه بالحجة دعاه إلى القضاء، فلما صارا بين يدي القاضي احتدَّ إياس ورفع صوته على خصمه، فقال له القاضي: "اِخفض صوتك يا غلام، فإن خصمك شيخٌ كبيرُ السِّن والقَدْر". فقال إياس: "ولكنَّ الحقَّ أكبر منه". فغضب القاضي وقال: "اُسكت!" فقال الفتى: "ومَن ينطق بحجتي إذا سكتُّ؟" فازداد القاضي غضبًا وقال: "ما أراك تقول منذ دخلت مجلس القضاء إلا باطلًا". فقال إياس: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أَحقٌّ هذا أم باطل؟"، فهدأ القاضي وقال: "حقٌّ وربِّ الكعبة حق".

وأكبَّ الفتى المزني على العلم ونهل منه ما شاء الله أن ينهل حتى بلغ فيه مبلغًا جعل الشيوخ يخضعون له ويأتمُّون به ويتتلمذون على يديه على الرغم من صغر سنِّه.

ففي ذات سنة؛ زار عبد الملك بن مروان البصرة قبل أن يلي الخلافة، فرأى إياسًا وكان يومئذ فتىً يافعًا لم يظهر شاربُه بعد، ورأى خلفه أربعة من القُرَّاء من ذوي اللِّحى في طيالستهم الخضر وإياس يتقدمهم، فقال عبد الملك: "أفٍّ لأصحاب هذه اللِّحى! أمَا فيهم شيخٌ يتقدمهم فقدَّموا هذا الغلام؟"، ثم التفت إلى إياس وقال: "كم سنك يا فتى؟" فقال إياس: "سني كسن أسامةَ بنِ زيد حين ولَّاه رسولُ الله ﷺ جيشًا فيه أبو بكرٍ وعمر". فقال له عبد الملك: "تقدَّم يا فتى تقدَّم بارك الله فيك".

وفي ذات سنة خرج الناس يلتمسون هلال رمضان، وعلى رأسهم الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري، وكان يومئذ شيخًا كبيرًا قد قارب المئة، فنظَر الناس إلى السماء فلم يروا شيئًا، لكن أنس بن مالك جعل يحدق في السماء ويقول: "لقد رأيت الهلال ها هو ذا" وجعل يشير إليه بيده فلم يره أحد، عند ذلك نظر إياس إلى أنس -رضي الله عنه- فإذا شعرة طويلة في حاجبه قد انثنت حتى غدت قبالة عينه، فاستأذنه في أدبٍ ومد يده إلى الشعرة فمسحها وسوَّاها ثم قال له: "أترى الهلالَ الآن أيضًا يا صاحبَ رسولِ الله؟" فجعل أنس ينظر ويقول: "كلَّا ما أراه، كلَّا ما أراه".

وشاعت أخبار ذكاء إياس وذاعت، وصار الناس يأتونه من كل صوب، ويُلقون بين يديه ما يعترضهم من مشكلات في العلم والدين، بعضهم يريد المعرفة، وبعضهم الآخر يبتغي التعجيز والممارة بالباطل، من ذلك ما روي أن دهقانًا أتى مجلسَه -والدهقانُ هي كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره- فقال: "يا أبا وائلة؛ ما تقول في المُسكِر؟" قال: "حرام". قال: "وما وجه حرمته وهو لا يزيد عن

كونه ثمرًا وماءً غُليا على النار، وكلُّ ذلك مباح لا شيء فيه؟" فقال: "أفرغتَ من قولك يا دهقان أم بقي لديك ما تقوله؟" فقال: "بل فرغت". فقال: "لو أخذت كفًّا من ماء وضربتك به أكان يوجعك؟" فقال: "لا". فقال: "ولو أخذت كفًّا من تراب فضربتك به أكان يوجعك؟" قال: "لا". فقال: "ولو أخذت كفًّا من تبن فضربتك به أكان يوجعك؟" قال: "لا". فقال: "فلو أخذت التراب، ثم طرحت عليه التبن، وصببت فوقهما الماء، ثم مزجتهما مزجًا، ثم جعلت الكتلة في الشمس حتى يبست، ثم ضربتك بها أكانت توجعك؟" قال: "نعم، وقد تقتلني"، فقال: "هكذا شأن الخمر؛ فهو حين جمعت أجزاؤه وخُمِّر حرم".

ولمَّا ولي إياس القضاء؛ ظهرت له فيه مواقف تدل على فرط ذكائه وسعة حيلته وقدرته الفذة في الكشف عن الحقائق، من ذلك أن رجلين تقاضيا عنده، فادعى أحدهما أنه أودع لدى صاحبه مالًا فلما طلبه منه جحده، فسأل إياس الرجل المدعى عليه عن أمر الوديعة فأنكرها وقال: "إن كانت لصاحبي بينة فليأتِ بها، وإلا فليس له عليَّ إلا اليمين". فلما خاف إياس أن يأكل الرجل المال بيمينه التفت إلى المودِع وقال له: "في أي مكان أودعته المال؟" قال: "في مكان كذا". فقال: "وماذا يوجد في ذلك المكان؟" فقال: "شجرة كبيرة جلسنا تحتها، وتناولنا الطعام معًا في ظلها، ولمَّا هممنا بالانصراف دفعت إليه المال". فقال له إياس: "انطلق إلى المكان الذي فيه الشجرة، فلعلك إذا أتيتَها ذكرتك أين وضعت مالك، ونبَّهتك إلى ما فعلته به، ثم عد إليَّ لتخبرني بما رأيت". فانطلق الرجل إلى المكان، وقال إياس للمدعى عليه: "اجلس إلى أن يجيء صاحبك". فجلس، ثم التفت إياس إلى مَن عنده من المتقاضين وطفق يقضي بينهم وهو يراقب الرجل بطرف خفي، حتى إذا رآه قد سكن واطمأن التفت إليه وبادره قائلًا: "أتقدِّر أن صاحبك قد بلغ الموضع الذي أودعك فيه المال؟" فقال الرجل من غير روية: "كلا، إنه بعيد من هنا". فقال له إياس: "يا عدو الله، تجحد المال وتعرف المكان الذي أخذته فيه؛ والله إنك

لخائن!". فبُهت الرجل وأقر بخيانته، فحبسه حتى جاء صاحبه، وأمره بردِّ وديعته إليه.

ومن ذلك أيضًا؛ ما رُوي من أن رجلين اختصما إليه في قطيفتين، مما يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين -والقطيفة قطعة من المخمل يلقيها المرء على نفسه- إحدى القطيفتين خضراء جميلة ثمينة، والأخرى حمراء بالية، فقال المدعي: "نزلت إلى الحوض لأغتسل، ووضعت قطيفتي الخضراء مع ثيابي على حافة الحوض، وجاء خصمي فوضع قطيفته الحمراء إلى جانب قطيفتي، ونزل إلى الحوض وخرج قبلي، فلبس ثيابه وأخذ قطيفتي فألقاها على رأسه وكتفيه ومضى بها، فخرجت على إثره وتبعته وطالبته بقطيفتي فزعم أنها له". فقال إياس للرجل المدعى عليه: "وما تقول أنت؟" فقال: "هي قطيفتي وفي يدي". فقال إياس للرجل المدعي: "ألكَ بينة؟" فقال: "كلا". فقال لحاجبه -والحاجب هو البواب الذي يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم- فقال له: "أحضر لي مشطًا"، فأُحضر له، فمشط شعر رأس الرجلين، فخرج من رأس أحدهما زغب أحمر من نثار صوف القطيفة -أي ما يتناثر من الشيء إذا نثرته-، وخرج من رأس الآخر زغب أخضر، فقضى بالقطيفة الحمراء لصاحب الزغب الأحمر، وبالقطيفة الخضراء لصاحب الزغب الأخضر.

ومن أخبار فطنته وذكائه أيضًا؛ أنه كان في الكوفة رجل يُظهر للناس الصلاح ويبدي لهم الورع والتقوى حتى كثر الثناء عليه، واتخذه بعض الناس أمينًا لهم يأتمنونه على مالهم إذا سافروا، ويجعلونه وصيًّا على أولادهم إذا أحسوا بدنو الأجل، فأتاه رجل واستودعه مالًا، ولما احتاج الرجل إلى ماله طلبه منه فأنكره، فمضى إلى إياس وشكى له الرجل، فقال للمشتكي: "أعلمَ صاحبُك أنك تريد أن تأتيني؟" قال: "كلّا". فقال له: "انصرف وعُد إليَّ غدًا". ثم أرسل إياس إلى الرجل المؤتمن وقال له: "لقد اجتمع لدي مال كثير لأيتام لا كافل لهم، وقد رأيت أن

أودعه لديك، وأن أجعلك وصيًا عليهم، فهل منزلك حصين ووقتك متسع؟" فقال: "نعم أيها القاضي". فقال: "تعال إليَّ بعدَ غد، وأعدَّ موضعًا للمال وأحضر معك حمَّالين يحملونه". وفي اليوم التالي جاء الرجل المشتكي، فقال له إياس: "انطلق إلى صاحبك واطلب منه المال، فإن أنكره فقل له: أشكوك إلى القاضي إياس". فأتاه الرجل فطلب منه ماله فامتنع عن إعطائه له وجحده، فقال له: "إذاً أشكوك إلى القاضي إياس". فلما سمع ذلك منه دفع إليه المال وطيَّب خاطره، فرجع الرجل إلى إياس وقال: "لقد أعطاني صاحبي حقي، وجزاك الله خيرًا". ثم جاء الرجل المؤتمن إلى إياس في موعده ومعه الحمَّالون، فزجره وفضحه وقال له: "بئس الرجل أنت يا عدوَّ الله! لقد جعلت الدينَ مصيدةً للدنيا".

لكن إياسًا على شدة ذكائه وقوة عارضته وسرعة بديهته؛ ربما صادف من يَقارعه الحجة بالحجة ويقطع عليه سبل الكلام ويفحمه، حدَّث عن نفسه قال: "ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل عليَّ رجل فشهد عندي أن البستان الفلاني هو ملك فلان وحدده لي، فأردت أن أمتحن شهادته، فقلت له: وكم عدد شجر البستان؟ فأطرق قليلًا ثم رفع رأسه وقال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا سنة. فقال: كم عدد خشب سقف هذا المجلس؟ فلم أعرف، وقلت: الحقُّ معك، ثم أجزتُ شهادته".

ولما بلغ إياس بن معاوية السادسة والسبعين من عمره، رأى نفسه وأباه في المنام راكبين على فرسين، فجريا معًا، فلم يسبق أباه ولم يسبقه أبوه، وكان والده قد مات عن ست وسبعين سنة.

وفي ذات ليلة أوى إياس إلى فراشه، وقال لأهله: "أتدرون أيُّ ليلة هذه؟" قالوا: كلَّا. قال: "في هذه الليلة استكمل أبي عمرَه". فلما أصبحوا وجدوه ميتًا.

رحم الله إياسًا القاضي فقد كان نادرة من نوادر الزمان، وأعجوبة من أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء والبحث عن الحق والوصول إليه.

الحلقة الثالثة (شريح القاضي)

هم الأسلاف العلماء الأتقياء والمخلصون الأوفياء، نفعهم الله بالعلم وزينهم بالتقى والحلم، أمروا بالمعروف والتزموه، ونهوا عن المنكر واجتنبوه، فارقوا أهل الأهواء والبدع والنحل، وأزالوا شبه الزائغين بأوضح البراهين والسبل، فهيا بنا لنستمع إلى قصة علم من أعلام السلف، وهو التابعي الجليل شريح القاضي.

اشترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فرسًا من رجل من الأعراب، ودفع له ثمنه، ثم امتطى صهوته ومضى به لكنه ما كاد يبتعد بالفرس طويلًا حتى ظهر فيه عطب عاقه عن مواصلة الجري، فانثنى به عائدًا من حيث انطلق وقال عمر للرجل: "خذ فرسك فإنه معطوب"، فقال الرجل: "لا آخذه يا أمير المؤمنين وقد بعته منك سليمًا صحيحًا"، فقال عمر: "اجعل بيني وبينك حكمًا"، فقال الرجل: "يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي"، فقال عمر: "رضيتُ به". احتكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وصاحب الفرس إلى شريح، فلما سمع شريح مقال الأعرابي التفت إلى عمر بن الخطاب وقال: "هل أخذت الفرس سليمًا يا أمير المؤمنين؟" فقال عمر: "نعم". فقال شريح: "احتفظ بما اشتريت يا أمير المؤمنين أو ردَّ كما أخذت". نظر عمر إلى شريح معجبًا، وقال: "وهل القضاء إلا هكذا قولٌ فصلٌ وحُكمٌ عدل؟ سِر إلى الكوفة فقد وليتُك قضاءها".

لم يكن شريح بن الحارث يوم ولاه عمر القضاء رجلًا مجهول المقام في المجتمع المدني، أو امرأً مجهول المنزلة بين أهل العلم وأصحاب الرأي من جلة الصحابة وكبار التابعين، فقد كان أصحاب الفضل وأهل السابقة يقدرون لشريح فطنته الحادة وذكاءه الفذ وخُلقه الرفيع وطول تجربته في الحياة وعمقها، فهو رجل يمني

الموطن كِندي العشيرة -أي منسوب إلى كندة-، وهي قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

وقد قضى شريح شطرًا غير يسير من حياته في الجاهلية، فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور الهداية ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض اليمن؛ كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله المستجيبين لدعوة الهدى والحق، وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله ومزاياه يأسون عليه أشد الأسى ويتمنون لو أنه أتيح له أن يفدَ على المدينة مبكرًا ليلقى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، ولينهل من موارده الصافية المصفَّاة مباشرة لا بالوساطة، ولكي يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظي بنعمة الإيمان، وبذلك يجمع الخير من أطرافه، ولكن ما قُدِّر كان، ولم يكن الفاروق -رضوان الله عليه- متعجلًا حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم الزُّهر من صحابة رسول الله ﷺ، فقد أثبتت الأيام صدق فراسة عمر وصواب تدبيره، إذ ظل شريح يقضي بين المسلمين نحوًا من ستين عامًا متتابعة من غير انقطاع.

وقد تعاقب على إقراره في منصبه كلٌّ من عمر وعثمان وعلي ومعاوية رضوان الله عليهم أجمعين، كما أقرَّه على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بني أمية، حتى طلب الرجل إعفاءه من منصبه إبَّان ولاية الحجاج، وكان قد بلغ السابعة بعد المِئة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر.

ولقد ازدان تاريخ القضاء في الإسلام ببدائع من مواقف شريح، وزها بروائع من انصياع خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله ونزولهم عند أحكامه، وامتلأت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ وأخباره وأقواله وأفعاله.

من ذلك أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- افتقد درعًا له كانت أثيرة عنده غالية عليه، ثم ما لبث أن وجدها في يد رجل من أهل الذِّمَّة يبيعها في سوق

الكوفة، فلما رآها عرفها وقال: "هذه درعي سقطت عن جمل لي في ليلة كذا وفي مكان كذا". فقال الذمِّي: "بل هي درعي وفي يدي يا أمير المؤمنين". فقال علي: "إنما هي درعي لم أبعها من أحد ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك". فقال الذمّي: "بيني وبينك قاضي المسلمين". فقال علي: "أنصفت، فهلمَّ إليه".

ثم إنهما ذهبا إلى شريح القاضي، فلما صارا عنده في مجلس القضاء قال شريح لعلي -رضي الله عنه-: "ما تقول يا أمير المؤمنين؟" فقال: "لقد وجدت درعي هذه مع هذا الرجل وقد سقطت مني في ليلة كذا وفي مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة". فقال شريح للذمّي: "وما تقول أنت أيها الرجل؟" فقال: "الدرع درعي وهي في يدي، ولا أتهم أميرَ المؤمنين بالكذب". فالتفت شريح إلى علي وقال: "لا ريب عندي في أنك صادق فيما تقوله يا أمير المؤمنين وأن الدرع درعك، ولكن لا بد لك من شاهدين يشهدان على صحة ما ادعيت". فقال علي: "نعم مولاي قنبر -أي عبدي قنبر- وولدي الحسن يشهدان لي". فقال شريح: "ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين". فقال علي: "سبحان الله! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته! أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)؟". فقال شريح: "بلى يا أمير المؤمنين، غير أني لا أجيز شهادة الولد لوالده".

عند ذلك التفت علي إلى الذمِّي وقال: "خذها فليس عندي شاهد غيرهما". فقال الذمّي: "ولكني أشهد بأن الدرعَ لك يا أمير المؤمنين"، ثم أردف قائلًا: "يا الله! أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه وقاضيه يقضي لي عليه! أشهد أن الدين الذي يأمر بهذا لحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، اِعلم أيها القاضي أن الدرع درع أمير المؤمنين، وأنني اتبعت الجيش وهو منطلق إلى صفِّين فسقطت الدرع عن جمله فأخذتُها". فقال له علي -رضي الله عنه-: "أما وإنك قد أسلمت، فإني وهبتها لك ووهبت لك معها هذا الفرس أيضًا".

ولم يمض على هذا الحادث زمن طويل حتى شوهد الرجل يقاتل الخوارج تحت راية علي في يوم النهروان، ويمعن في القتال حتى كتبت له الشهادة.

ومن روائع شريح أيضًا؛ أن ابنه قال له يومًا: "يا أبتِ؛ إن بيني وبين قوم خصومة فانظر فيها، فإن كان الحق لي قاضيتهم، وإن كان لهم صالحتهم"، ثم قصَّ عليه قصته، فقال له شريح: "انطلق فقاضِهم". فمضى إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة فاستجابوا له، ولما مثلوا بين يدي شريح قضى لهم على ولده، فلمَّا رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: "فضحتني يا أبتِ! والله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك". فقال شريح: "يا بني، والله لأنت أحب إليَّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله عز وجل أعز عليَّ منك، لقد خشيت أن أخبرك بأن الحقَّ لهم فتصالحهم صلحًا يفوت عليهم بعضَ حقهم، فقلت لك ما قلت".

وقد كفل ولدٌ لشريح رجلًا فقبل كفالته، فما كان من الرجل إلا أن فر هاربًا من يد القضاء، فسجن شريحٌ ولدَه بالرجل الفار، وكان شريح ينقل له طعامه بيده كل يوم إلى السجن، وكانت الشكوك تساور شريحًا أحيانًا في بعض الشهود، غير أنه لا يجد سبيلًا لدفع شهادتهم لما توافر لهم من شروط العدالة، فكان يقول لهم قبل أن يدلوا بشهادتهم: "اسمعوا مني هداكم الله؛ إنما يقضي على هذا الرجل أنتم، وإني لأتقي النار بكم، وأنتم باتقائها أولى، وإن في وسعكم الآن أن تدعوا الشهادة وتمضوا"، فإذا أصروا على الشهادة التفت إلى الذي يشهدون له وقال: "اِعلم يا هذا أنني أقضي لك بشهادتهم، وإني لأرى أنك ظالم، ولكني لست أقضي بالظن وإنما أقضي بشهادة الشهود، وإن قضائي ما يُحِل لك شيئًا حَرَّمه اللهُ عليك".

وكان الشعار الذي يردده شريح في مجالس قضائه قوله: "غدًا سيَعلمُ الظالمُ مَن الخاسر، إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصفة -أي الإنصاف والعدل-، وإني أحلف بالله أنه ما من أحد ترك شيئًا لله عز وجل ثم أحس بفقده".

ولم يكن شريح ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه فحسب، وإنما كان ناصحًا لعامة المسلمين وخاصتهم أيضًا، روى أحدهم قال: سمعني شريحٌ وأنا أشتكي بعض ما غمني لصديق، فأخذني من يدي وانتحى بي جانبًا وقال: "يا ابن أخي؛ إياك والشكوى لغير الله عز وجل، فإنك من تشكو إليه لا يخلو أن يكون صديقًا أو عدوًّا، فأما الصديق فتحزنه، وأما العدو فيشمت بك". ثم قال: "انظر إلى عيني هذه -وأشار إلى إحدى عينيه- فوالله ما أبصرت بها شخصًا ولا طريقًا منذ خمس عشرة سنة، ولكني ما أخبرت أحدًا بذلك إلا أنت في هذه الساعة، أمَا سمعت قول العبد الصالح: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله}؟، فاجعل الله عز وجل مَشكاك ومَحزنك عند كل نائبة تنوبك، فإنه أكرم مسؤول وأقرب مدعو".

وقد رأى ذات يوم رجلًا يسأل آخر شيئًا فقال له: "يا ابن أخي، من سأل إنسانًا حاجة فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها له المسؤول فقد استعبده بها، وإن ردها عنها رجع كلاهما ذليلًا؛ هذا بذل البخل وذاك بذل الرد، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنه لا حول ولا قوة ولا عون إلا بالله".

وقد وقع بالكوفة طاعون، فخرج صديق لشريح منها إلى النجف يبتغي المهرب من الوباء، فكتب إليه شريح: "أما بعد؛ فإن الموضع الذي تركته لا يقرب حِمامك -أي لا يقرب موتك ومنيتك- ولا يسلب منك أيامك، وإن الموضع الذي صرت إليه في قبضة مَن لا يعجزه طلب ولا يفوته هرب، وإنا وإياك لعلى بساط ملك واحد، وإن النجف من ذي قدرة لقريب".

وكان شريح إلى ذلك كله شاعرًا قريب المأخذ حلو الأداء طريف الموضوعات، روي عنه أنه كان له صبي في نحو العاشرة من عمره، وكان الصبي مؤثرًا اللهو مولعًا باللعب، فافتقده ذات يوم فإذا هو قد ترك الكُتَّاب -وهو مكان التعلم-

ومضى يتفرج على الكلاب، فلما عاد إلى المنزل سأله: "أصليتَ؟" فقال: "لا". فدعا بقرطاس وقلم -والقرطاس هو الورق- وكتب إلى مؤدبه يقول:

ترك الصلاة لأكلُبٍ[١] يسعى لها *** يبغى الهراش[٢] مع الغواةِ الرُّجَّسِ
فليأتينك غدوةً بصحيفةٍ *** كُتبت له كصحيفة المتلمسِ[٣]
فإذا أتاك فداوه بملامةٍ *** أو عِظه موعظة الأديب الكيسِ
وإذا هممت بضربه فبدرَّةٍ[٤] *** وإذا بلغت ثلاثة لك فاحبسِ
واعلم بأنك ما أتيت فنفسُه *** مع ما يجرِّعُني أعز الأنفسِ

رضي الله عن الفاروق؛ فقد زان وجه القضاء في الإسلام بلؤلؤة كريمة الأعراق صافية الجوهر رائعة المجتلى، وحبا المسلمين مصباحًا منيرًا ما زالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله، ويهتدون بنور فهمه لسنة رسول الله، ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحًا القاضي؛ فقد أقام العدل بين الناس ستين عامًا فما حافَ على أحد ولا حادَ عن حق ولا ميَّزَ بين ملك ومملوك.

وأخيرًا؛ فقد قيل لشريح بأي شيء أصبتَ هذا العلم؟ فقال: "بمذاكرة العلماء؛ آخذ منهم وأعطيهم".

---

[١] تعليق إذاعة البيان: والأكلب هي الكلاب.

[٢] تعليق إذاعة البيان: والهراش هو مهارشة بعض الكلاب على بعض، والغواة الرجس هم ممارسو الأعمال القبيحة.

[٣] تعليق إذاعة البيان: وصحيفة المتلمس كان مكتوبًا فيها: "إذا جاءك حامل هذه الصحيفة فاقتله".

[٤] تعليق إذاعة البيان: أي بالعصا.

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء

صحب الخلافة